قمر الدين من الشمش . قريشة . قنبريس . اما الآن فليس من احصاء يوثق بهِ لمعرفة صادراتها وواردانها واعتماد بعض القناصل على اخراج احصاءات بذلك كل سنة الا ان ارقامها تخمينية لا يعتمد عليها ولا يركن في التحقيق اليها . انتهى محمد كرد علي

فتح المكسيك

(تابع ما قبله)

سار اسطول كورتس حول خليج المكسيك بعد الفوز المبين الذي وصفناهُ في الجزء الماضي ورأى جماهير الاهالي على الشاطئ متهللين بقدومهِ اليهم حاسبين انهُ اتى للاتجار معهم غير عالمين ما خُبِّئَ لهم في جعبة الزمان حتى اذا بلغ الاسطول جزيرة صغيرة بينها وبين البر مرفأ امين رأى كورتس ان يلقي مرساتهُ فيهِ حاسباً ان الجزيرة تقيهِ عصف الرياح التي تعصف هناك في اواخر الربيع . ولم تكد سفنهُ ترسو في ذلك المرفإ حتى اسرع الاهالي الى قارب صغير مصنوع من شجرة مجوَّفة فنزلوا فيهِ واقتربوا من سفينتهِ وصعدوا اليها بوجه باش وتحيَّا طلق كمن يقابل صديقاً آتياً من سفر . واتوا معهم بهدايا من الاثمار والازهار وبعض الحلى الذهبية . وحاول كورتس ان يتكلم معهم بواسطة الترجمان فوجد انهُ لا يعرف لغتهم فأسقط في يدهِ وحار في امرهِ ثم قيل لهُ ان واحدةً من الجواري اللواتي أُهدين اليهِ في تابسكا على ما ذكرنا في الجزء الماضي تعرف لغة هؤلاء الاقوام . وهي مكسيكية الاصل ولدت عند التخوم الجنوبية من بلاد المكسيك وتوفي ابوها في حداثتها وكان من رؤساء بلادهِ ومن ذوي الثروة الطائلة فيها فتزوجت امها برجل آخر وولد لها ابن منهُ فسوَّلت لها نفسها ان تعطي ميراث ابنتها لابنها فصبرت الى ان توفيت فتاة من جواريها فادَّعت انها ابنتها واعطت ابنتها لتاجر من بلاد بعيدة فمضى بها وباعها من رئيس بلاد التابسكو وهذا اهداها الى كورتس على ما تقدم . وكانت هذه الفتاة تعرف لغة المكسيك لانها لغة قومها ثم تعلمت لغة تابسكا مدة اقامتها فيها فصارت تترجم اقوال هؤلاء الرجال للترجمان اغويلار وهو يترجمها لكورتس الى الاسبانية او لغة قشتالة . وسمَّى الاسبانيون هذه الفتاة مارينا وسندعوها بهذا الاسم في ما يلي وكانت ذكية الفؤاد فتعلَّمت اللغة الاسبانية حالاً فجعلها كورتس ترجماناً لهُ وحظيت عندهُ فتزوج بها واولدها ابنهُ دون مارتن وكانت على جانب عظيم من الجمال بشوشة الوجه طلقة المحيا كريمة الطباع احبَّت كورتس وخلَّصتهُ وخلَّصت رجالهُ من مهالك كثيرة لكنها لم تسرَّ بما حلَّ بقومها

بل شاركتهم في مصايبهم فاكرمها الفريقان معاً

وعلم كورتس من القوم الذين نزلوا الى سفينته انهم من مملكة المكسيك العظيمة وان بلادهم ضُمَّت حديثاً الى تلك المملكة واسم ملكها متزوما وعاصمتهُ في سهل مرتفع في اواسط البلاد تبعد نحو مئتي ميل عن الساحل وعليهم والٍ من قبلهِ اسمهُ تهتليل يسكن على ٢٤ ميلاً من البحر . واخبرهم كورتس انهُ آتٍ للاتجار معهم وانهُ يودُّ ان يرى الوالي . ولما علم منهم ان في بلادهم كثيراً من الذهب صرفهم بالهدايا الكثيرة وهو يحسب انهُ نال ما تمنى

وفي اليوم التالي نزل الى البر برجالهِ حيث بنيت مدينة فُراكروز بعدئذٍ وصارت محط تجارة اوربا والمكسيك . وكانت الارض سهلاً منبسطاً تتخللهُ كثبان الرمال فنصب مدافعهُ عليها وقطع الاشجار والاجم وبنى منها خياماً لرجالهِ وكان خبرهُ قد بلغ الوالي فبعث اليهِ رجالاً يساعدونهُ على بنائها فدقوا اوتادها في الارض ونصبوا حولها الاغصان وغطوها بحصر وشقق من القطن اتوهُ بها

وتقاطر الاهالي من كل البلاد المجاورة لمشاهدة الغرباء وجلبوا معهم كثيراً من الاثمار والازهار والبقول والطيور والاطعمة المختلفة وقليلاً من الحلى الذهبية فاعطوهم بعضها هدية وقايضوهم من البعض الآخر بالادوات الاسبانية حتى امتلأ مخيم الاسبانيين من اهالي المكسيك رجالاً ونساء . وعلم كورتس من بعضهم ان الوالي عازم على زيارتهِ في اليوم التالي . وجاء الوالي كما قالوا بموكب عظيم فاستقبلهُ كورتس بحفوفٍ برجالهِ وقوَّاد جيشهِ وكان اليوم عيد الفصح فوقف كاهن كورتس وقام بالخدمة الدينية فاصغى المكسيكيون اليهِ بالاحترام التام ثم قُدِّمت اليهم الخمور الاسبانية وتقدَّم التراجمة فسألوا كورتس عن غرضهِ وعن البلاد التي جاء منها فقال لهم انهُ من رعايا ملك رفيع الشأن واسع السلطان يسكن عبر البحر ويتسلط على مملكة واسعة الارجاء ويخضع لهُ كثيرون من الملوك والامراء وقد بلغهُ ان ملك المكسيك من الملوك العظام فاوفدهُ اليهِ بهدية سنية ورسالة امرهُ ان يسلمهُ اياها يداً ليد . ثم سأل الوالي عن اليوم الذي يسمح لهُ فيهِ بالمثول لدى مولاهُ

فنظر اليهِ الوالي نظر الاستغراب وقال لهُ لم يمضِ عليكَ سوى يومين في بلادنا فكيف تطمع برؤية ملكنا ولكن ان كان ملكك من العظمة والسودد على ماوصفت فلا شبهة في ان مولاي الملك يسرُّ برؤيتك وسأرسل هديتك اليهِ مع رسلي ومتى بلغتني اوامرهُ لا اتأخر عن ابلاغها اليك

ثم امر غلمانهُ فاحضروا الهدية التي جاء بها وهي عشرة احمال من المنسوجات القطنية

الفاخرة وحلل كثيرة من ريش الطيور بديعة النقش والبرقشة تزري بصور امهر المصورين وسلة مملوءة بالحلى الذهبية . فدهش الاسبانيون من هذه الهدية واستدلوا منها على ثروة البلاد وفرط غناها

وقبل كورتس الهدية شاكرًا وامر رجالهُ ان يحضروا الهدية المرسلة الى ملك المكسيك وهي كرسيٌّ كبير جميل النقش وقلنسوة حمراء عليها نشان من الذهب وشيء من الريالات والاساور وحلى من الزجاج ولم يكن الزجاج معروفًا في بلاد المكسيك فظنوهُ حجارة كريمة . ورأى الوالي جنديًّا لابسًا خوذة مذهبة فقال انها تشبه خوذة على رأس المهم كوتزلكوتل في العاصمة وانهُ يود ان يراها الملك فقال كورتس انهُ يرسلها الى الملك عسى ان ترد اليهِ مملوءة بتبر البلاد حتى يقابل بينهُ وبين الذهب الاسباني . ثم قال للوالي ان الاسبانيين مصابون بداء في قلوبهم لا يشفيهِ الاَّ الذهب ولذلك تراهم يتطلبونهُ في كل مكان . ولم يترك واسطة تقنع الوالي برغبتهِ في الذهب الاَّ استعملها

وبينما كان كورتس يحادث الوالي بواسطة الترجمان رأى واحدًا من رجالهِ مهتمًّا بالكتابة على قرطاس من النسيج الصفيق فنظر اليهِ واذا هو يصوّر الاسبانيين باكسيتهم واسلحتهم ويلوّن الصور باحبار مختلفة الالوان وعلم من الوالي انهُ يريد ارسال هذه الصور الى ملكهم فيدرك منها حقيقة الغرباء . فرأى كورتس ان يزيد دهشة الملك فامر فرسانهُ ان يعلوا صهوات خيولهم وبقية جنودهِ ان يتقلدوا اسلحتهم وينتظموا كانهم في القتال ثم بوّقت الابواق وهجم الفرسان والمشاة وداروا حول الوالي ورجالهِ وأُطلقت المدافع فدوى صوتها في القيعان ومرّت قنابلها بين الاشجار تمزقها اربًا فدهش الوالي ورجالهُ وارتعبوا ولم يفت المصور شيء من ذلك فصورهُ كلهُ وشرحهُ حسبما تحتملهُ الكتابة المكسيكية وكانت سفن الاسبانيين راسية امام الشاطىء منشورة الشراع كانها جبال راسخة تكللت هاماتها بالثلوج فصوّرها ايضًا

ويقال انهُ كان بين رجال الوالي رئيسان ناقمان منهُ ومن الملك فادركا غرض كورتس واسرّا اليهِ انهما يريانهِ رسوم البلاد كلها ومواقع الضعف فيها ثم اتياهُ بهذه الرسوم فكانت اكبر مساعد لهُ على تدويخ البلاد . ذكر هذه الرواية واحد من الثقات ولكن لم يؤيدها غيرهُ ولا شبهة في ان كورتس وجد في البلاد كثيرين من الخونة او من الناقمين من ملكها فعاونوهُ عليهِ كما سيجيء

وعاد الوالي من زيارة كورتس بالموكب الذي جاء بهِ بعد ان امر رجالهُ بتقديم ما يلزم كورتس ورجالهُ من الميرة الى ان ترد اوامر الملك من العاصمة

واسم الملك منتزوما كما تقدَّم او مكتيزوما وهو الثاني بهذا الاسم. اقيم ملكاً سنة ١٥٠٢ لما اشتهر بهِ من البسالة والتُّقى لان ملوك المكسيك كانوا جامعين بين السيادة الدينية والدنيوية. ويقال ان معنى اسمهِ بلسانهم الوزين لانهُ كان على جانب عظيم من الرزانة. كان اولاً فارساً مغواراً اشتبك في حروب المملكة وابلى سيفي اعدائها ثم انقطع الى خدمة الهياكل حتى اذا اختارهُ رؤساء بلادهِ ملكاً عليهم وجدوهُ في الهيكل العظيم هيكل اله الحرب يكنس درجهُ وجاءهُ نسيبهُ ملك تزكوكا يبشرهُ باختيار قومهِ لهُ وقد حُفظت الخطبة التي تلاها على مسمعهِ حينئذٍ ومنها قولهُ "من يرتاب في ان مملكة الازتك قد بلغت اوج مجدها اذ قد نصب الله القدير على عرشها ملكاً تملأ حضرتهُ كل ناظر رهبة. سقياً لكِ ايتها الامة لانهُ قام فيكِ ملك تعتمدين عليهِ ابٌ في الضيق اخٌ في الشدَّة ذو نفس ابيَّة لترفع عن ملاذ الحواس ومطاوح الكسل. وانت ايها الشاب المجيد ثق بان الخالق الذي القى على عاتقك هذا العبء الثقيل يقويك على القيام بهِ وانهُ كان جوَّاداً كريماً وسيجزل جودهُ عليك ويحفظك في عرشك اعواماً طوالاً" هذا ما تمناهُ رجال المكسيك لملكهم ولكن الزمان ابو العجب ونوائبهُ لا تصرفها الاماني

وابدى منتزوما في بداءة ملكهِ ما توقعهُ منهُ قومهُ من الحكمة والدهاء فاخضع العصاة واسر منهم خلقاً كثيراً ولما قيد الاسرى ليذبحوا ضحية لمعبودهم كان بين الجموع المزدحمة لرؤيتهم اناس من الاعداء اتوا متنكرين فكُشف امرهم وأُخبر الملك عنهم فلم يغتظ منهم بل امر ان يجلسوا في مكان يشاهدون منهُ الاحتفال

ووسَّع نطاق مملكتهِ في السنة الاولى من ملكهِ واصلح مجالس القضاء وكان يجول في الشوارع متخفياً ليقف على احوال رجالهِ واحسن جزاء الامناء منهم. واكثر من بناء الهياكل وتزيينها وجلب الماء الى العاصمة في قنوات جديدة وبنى مستشفى للجنود في مكان طيب الهواء

ثم غرَّهُ نجاحهُ فاحتجب عن الناس واظهر العظمة والجبروت واستخدم اعظم عظماء شعبهِ في اصغر اعمال قصرهِ وصرف كثيرين من رؤساء الجند الذين كانوا في خدمة سلفهِ لانهم ليسوا من اصل رفيع. واراد احكمُ رجالهِ ان يصرفوهُ عن هذه الغطرسة فلم يستطيعوا ثم زاد غيظهم منهُ بوضعهِ الضرائب الفاحشة عليهم وابتزازهِ الاموال منهم وانفاقها في ملذاتهِ وزخرفة قصورهِ واشتدَّ ظلمهُ في البلدان التي فتحها فخرج شعبها عليهِ حتى اضطر ان يستخدم نصف مملكتهِ لاخضاع النصف الآخر

وتوفي حليفهُ ملك تزكوكا سنة ١٥١٦ وتنازع ولداهُ الملك من بعدهِ فانقسمت تلك المملكة الى قسمين احدهما محالف لملك المكسيك والآخر مخالف لهُ. وكانت جمهورية تلاسكالا على

اشد العداء لهُ وهي على صغرها قائمة برجال بواسل حفظوا استقلالهم مئتي سنة فلم يستطع التغلُّب عليها

هذه كانت حالة البلاد يوم جاءها كورتس — ملكها ظالم غشوم والشعب ناقم عليهِ كاره لهُ والحليف منقسم على نفسهِ والعدو متربّص الفرص ولم تكن المملكة ضعيفة ولا شعبها ممن يستهان بهِ ولكن اسلحتها كانت دون اسلحة الاسبانيين ونظامها الحربي دون نظامهم وكان ملكها قد ترك قيادة جيوشهِ لقوادهِ وانقطع الى خدمة الهياكل والقيام بالحفلات الدينية

وكان اهالي المكسيك يعتقدون ان معبودهم كوتزلكوتل هجرهم الى حين ووعدهم بالعودة اليهم ثانيةً وان مجيئهُ صار قريباً وقد حدثت حوادث طبيعية كثيرة منذرة بمجيئهِ فهاجت بحيرة المكسيك وطغت على العاصمة من غير نوء واشتعل برج الهيكل الاكبر من غير نار وظهرت ثلاثة من ذوات الاذناب وبدا من الشرق نور ساطع مستطير انتشر من الافق الى سمت الراس وسُمعت في الهواء اصوات مزعجة كمن يندب وينعي بالخراب وخاف الملك من ذلك واستشار حليفهُ ملك التزكوكا في ما عسى ان ينذر بهِ لانهُ كان منجماً فقال لهُ انهُ ينذر بانقضاء ملكك وخراب مملكتك . وزاد المؤرخون ان اخت الملك بُعثت من قبرها بعد دفنها باربعة ايام وانذرتهُ بسوء المصير اذا بقي على ظلمهِ وجورهِ

ولا شبهة في ان هذه الاقاصيص وامثالها تولدت بعد الفتح او في غضونهِ مما بقي في النفوس من آثار الظلم او بنيت على حوادث طبيعية عادية زاد الوهم فيها مبالغةً ولكن لا يُنكر ان كثيرين من شيوخ المكسيك وحكمائها كانوا قد خوّفوا ملكهم من سوء العاقبة اذا لم يرعوِ مبينين لهُ ان الظلم وخيم المرتع وعاقبتهُ الدمار فلما وصل غريجلفا القائد الاسباني الى سواحل المكسيك قبل كورتس بسنة اضطرب منتزوما اضطراباً شديداً حاسباً ان آخرتهُ دنت وان صولجان الملك سينتقل من اسرتهِ الى اسرة اخرى . ثم فُرّج عنهُ لما مضى غريجلفا في سبيلهِ لكنهُ بقي موجساً شرًّا فاقام الديادبة على المرتفعات لينذروهُ بمجيء الغرباء حتى اذا جاء كورتس بلغهُ خبر مجيئهِ حالاً وامر والي الولاية التي نزل فيها كورتس ان يرحّب بهِ ففعل كما تقدَّم . ثم لما وصلت اليهِ صوَر الاسبانيين تجدَّدت مخاوفهُ وعقد مجلساً من مشيريهِ واستدعى اليهِ ملك تزكوكا وملك تلكوبان فاختلفت آراؤهم في الغرباء فمن قائل بوجوب مناوأتهم واخذهم بالحيلة او بالقوة ومن قائل انهم ليسوا بشرًا (لانهم ظنوا الفارس وفرسهُ حيواناً واحداً) واذا لم يكونوا بشرًا فالحيلة والقوة لا تجديان نفعاً وان كانوا وفوداً من ملك آخر فليس من العدل محاربتهم ومهما يكن من امرهم فهم ليسوا من قوم كوتزلكوتل (الذي ابنّا قبلاً انهُ رسول المكسيك)

لانهم لو كانوا من قومهِ لما اهانوا ديانتهُ كما فعلوا في تابسكو فليسوا ممَّن ننتظرهم . وكان ملك التزكوكا من المشيرين بمسالمة الاسبانيين والترحيب بهم

فاختار منتزوما طريقًا وسطًا بين الطرفين حاسبًا انهُ خير الطرق وهو شرُّها فبعث الى كورتس بافخر الهدايا لكي يقنعهُ بعظمتهِ وحاول جهدهُ ليصرفهُ عن الدنو من عاصمتهِ. فاعرب لهُ عن غناهُ وضعفهِ في وقت واحد

وظلَّ الاهالي يبنون الخيام لرجال كورتس كما امرهم الوالي حتى بنوا لهم اكثر من الف خيمة وجاؤوهم باللحم والسمك وانواع الفاكهة والخضر والبقول وافراصًا مصنوعة من الدقيق واطعمة مطبوخة ومطيبة بالطيوب والافاويه

ولم تمضِ سبعة ايام من حين جاء الوالي حتى اتى وفد الملك الى كورتس مع ان العاصمة تبعد اكثر من مئتي ميل. والوفد رجلان من اشراف المملكة معهما مئة عبد يحملون هدية الملك واحد هذين الرجلين يشبه كورتس شكلاً فاختير لهذا السبب ورأى الاسبانيون فيهِ هذه المشابهة فسموهُ كورتس المكسيك وهذا يدل على ان المصور الذي صوَّر كورتس احسن تصويرهُ حتى استدل المكسيكيون على رجل يشبههُ

ودخل الرسولان خيمة كورتس وامامهما الغلمان بمباخر الطيب فوقفا وسلَّما بخفض اليد الى الارض ورفعها الى الجبهة على جاري عادة المكسيك ثم نشر العبيد حصرًا مكسيكية ووضعوا الهدايا عليها وهي من تروس وخوذ ودروع من الذهب الخالص وعقود واساور من الذهب ايضًا واحذية ومراوح وريش ممزوج باسلاك الذهب والفضة نظمت فيها اللآلئ والحجارة الكريمة وهو ممَّا يوضع في اعلى الخوذ والقلانس. واشكال من الطيور والحيوانات مصنوعة بالذهب والفضة صنعة بديعة وحلل كثيرة من القطن الدقيق كانهُ الحرير في دقتهِ وهي مصبوغة بالوان مختلفة وتتخلل نسجها ريش بديع الالوان . وكان في الهدية الخوذة الاسبانية المشار اليها آنفًا وقد ردَّت مملوَّة بالذهب وطبقان كبيران محيط كلٍّ منهما ثلاثون قيضة احدهما من الذهب والآخر من الفضة يمثلان الشمس وعليهما نقوش كثيرة بديعة جدًّا قُدِّر ثمن طبق الذهب منهما بخمسين الف جنيه

فابتهج الاسبانيون بهذه الهدية لانها فاقت كل ما كانوا ينتظرون ثم قدَّم الرسولان رسالة مولاهم فاذا هو يقول فيها انهُ مسرور بربط عرى المودة بينهُ وبين ملك عظيم مثل ملك اسبانيا ويأسف لان بُعد عاصمتهِ عن الشاطئ يمنعهُ من رؤية وفود هذا الملك لاسيما وان الطريق اليها مخوف بالمخاطر فما على الوفود الاَّ ان يرجعوا من حيث اتوا حاملين الهدايا التي تدل على

اكرامهِ لهم. فاغاظ كورتس من منعهِ عن دخول العاصمة لكنهُ اخفى غيظهُ وشكر الوفد وقال ان ما شملني بهِ منكم من الاكرام زاد رغبتي في التشرف برؤياهُ وصار يستحيل عليَّ ان اعود الى بلادي واقابل مولاي الملك من غير ان احظى بمشاهدة من سافرت ستة آلاف ميل في اشد المخاطر لاجل مشاهدتهِ. وطلب من الوفد ان يحمل رسالتهُ هذه الى الملك ليسمح لهُ بالمثول في حضرتهِ وارسل معهُ هدية صغيرة فيها بعض القمصان الهولندية وزجاجة فلورنسية مذهبة ومشغولة باليدينا . هدية صغيرة جدًّا امام هدية ملك المكسيك الثمينة فلم يسرَّ الوفد بحملها ولا بحمل الرسالة وودع كورتس وهو يؤكد لهُ ان طلبهُ لا يجاب

ونظر الاسبانيون الى هدية ملك المكسيك بعين الدهشة فقال بعضهم هنا الغنى الوافر فهلمَّ بنا اليهِ وقال البعض الآخر ان هذا الغنى يدل على ملك ضخم وقوة فائقة لا قبَل لنا بها فعلينا ان نعود الى كوبا ونعرض الامر على الوالي ونعود بجيش اكبر وقوة اعظم . اما كورتس فكان مخلوقًا لاقتحام المخاطر لكنهُ لم يقل شيئًا بل قصد ان يثير النخوة في نفوس رجالهِ اولاً حتى يندفعوا من انفسهم الى اقتحام المخاطر

وكان الساحل وبيئًا كثير الحشرات فمرض ثلاثون من رجال كورتس وماتوا ثم قلَّ مجيء الاهالي اليهِ بالاطعمة وصاروا يغالون بها . ولم يكن المرفأ الذي فيهِ سفنهُ امينًا فبعث سفينتين تفتشان عن مرفإٍ امين. وعاد وفود ملك المكسيك بعد عشرة ايام يحملون هدية أُخرى قُدِّر ثمنها بثلاثة آلاف اوقية من الذهب وفيها ثلاثة حجارة كريمة تشبه الزمرُّد المعرَّق بالابيض ارسلت هدية الى ملك اسبانيا خاصَّة لانها اثمن الجواهر عند اهل المكسيك لكنها لم تكن ثمينة في اوربا . وكان جواب الملك انهُ يرفض بتاتًا مجيئهم الى عاصمتهِ وانهم قد نالوا الآن كل ما تمنوا فوجب عليهم ان يرجعوا من حيث اتوا

ولما عاد وفد ملك المكسيك هجر الاهالي مخيم الاسبانيين ولم يبقَ فيهِ احد منهم وخاف كورتس ان يهجموا عليهِ ليلاً فاستعدَّ لهم لكنهم لم يفعلوا بل اكتفوا بهجرانهِ

ولا شيء اضرُّ بالجنود من قيامهم من غير عمل ولا سيما اذا كان فيهم كثيرون من الرؤساء وكلٌّ منهم يرمي الى غرض وكلهم حاسد لرئيسهم الاكبر . هذا كان شأن جنود كورتس وهو في ساحل المكسيك ولما رأوا ان الاهالي قاطعوهم وانهم حفنة صغيرة في مملكة وسيعة صمَّموا على العودة وكاشفوا كورتس بذلك وهو عالم بما كانوا يضمرون فجعل يمنيهم وبينما هو يفعل ذلك جاءهُ خمسة من الرؤساء لباسهم مختلف عن لباس اهالي المكسيك في اصابعهم خواتم من الذهب وفي انوفهم واذانهم خُزُم واقراط من الحجارة الكريمة وفتحوا لهُ بابًا جديدًا للامل كما سيجيء